مفاهيم نيتشه الكبرى، والولادة الجديدة للذات (4)

مفهوم العود الأبدي للذات ذاتها

د. عبد الغاني الهيداني
مفتش تربوي لمادة الفلسفة، فاس
المغرب

ملخص البحث:

يتوخى هذا المقال فتح نافذة للتفكير الفلسفي في مسوغات ومآلات الانعطافة التي أحدثها مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" في التفكير الفلسفي المعاصر بخصوص مسألة الذات؛ إذ ساهم هذا المفهوم النيتشوي في نقل مسار التفلسف حول الذات من التصورات الميتافيزيقية التي أرست صورة دوغمائية للذات الإنسانية بمنظور فلسفي جديد من شأنه تحريض الذات الإنسانية، في الزمن الراهن، على التجاوز المستمر لمناحي ارتكاسيتها بغية الرفع من منسوب تجددها وتعددها. ومن ثمة، المساهمة الفعلية في تحقيق استفاقة نوعية للذات المعاصرة التي لازالت تئن تحت وطأة التطاحنات الإيديولوجية الخانقة، والتسارعات الرقمية الفظيعة. وحرصا منا على تنويع الاستراتيجيات المنهجية لتتبع مسارات تبلور مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" في المعجم النيتشوي، ومنزلته في الولادة الجديدة للذات، فسنتوسل بمنهج ثلاثي الأبعاد: **تحليلي، مقارن ونقدي** بغية تعميق النظر في الإشكال الآتي: **إلى أي حد يمكن لمفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" المساهمة، الفعلية، في الولادة الجديدة للذات من خلال نقل مسار الفكر الفلسفي من ضيق "الذات الارتكاسية" إلى رحاب "الذات المرحة"؟**

كلمات مفتاحية:

نيتشه، الاستفاقة، الذات الارتكاسية، الذات المرحة والعود الأبدي للذات ذاتها.

مقدمة:

ظل الاهمام بفلسفة فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844–1900) يستأثر بانشغالات العديد من النظار في الحقل الفلسفي المعاصر؛ إذ يمثل صاحب التفلسف بضربات المطرقة صدعا في تاريخ البشرية؛ فرسالته تكشف عن تصدع عصره البورجوازي، وتعرية وعيه الكاذب بأسره، وإلى تغيير ألواح قيمه التي فقدت قيمتها بعد أن تداعى عمود النظام الميتافيزيقي الذي كان يستند عليه؛ محاولا، بذلك، بلورة أفق جديد للذات، في ارتباطه بمفوم "العود الأبدي للذات ذاتها"، خالف به كل التصورات النظرية، والمرجعيات الأخلاقية، والإيديولوجيات اللاهوتية المعادية للحياة الإنسانية.

لذا، انبرى فريدريك نيتشه يستقصي تاريخ الفلسفة، عبر مراحله الكبرى، بغية استعادة الذات التي طمس معالمها الفكر المتمركز حول سراب الحقيقة النهائية؛ محاولا فضح أقنعته المستندة إلى غريزة إنكار الحياة وإفقارها، والتي كلما استشعرت ضعفها وفتورها أعلنت عن عوالم جديدة تبرر من خلالها وجودها. ومن ثمة المساهمة في تحقيق استفاقة نوعية للذات الإنسانية، من خلال إقدارها على استيعاب التعدد الكامن داخل تجربتها الوجودية، عبر بوابة "العود الأبدي للذات ذاتها"، حيث تحتفي بقوتها التي تثبت بها أصالتها وغيريّتها وفق ما تستطيعه من إمكانات دون إسباغ أي نموذج قبلي عليها.

وحيث إن الأثر الفكري لصاحب الجنيالوجيا عموما، ومسألة "العود الأبدي للذات ذاتها" تحديدا، يظل لغزا محيرا من جهة، وفضاء خصبا للتفلسف من جهة أخرى، فإننا نشير، ابتداء، إلى نقطة منهجية دقيقة تتمثل في كون الفكرة عند فريدريك نيتشه لا تنبثق في عقله كاملة، ولكنها تولد في نص، وتشق سيرها اللامتوقف في باقي النصوص، بل إن التشكلات المفهومية عند صاحب الكتابة الشذرية تخضع لمسارات محفوفة بالالتباسات والالتواءات؛ وإن مردّ ذلك، في نظرنا، كامن في اللغة التي يستعملها الفيلولوجي الجريء، والمتمرد على المعاجم الفلسفية التقليدية.

بهذا الاعتبار المنهجي الدقيق، وجب علينا، إذن، أن نتعقب مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" في المتن النيتشوي بتأن كبير، ونتابع مسارات تشكلاته، ونتبين مراحل تطوره في مختلف نصوص فريدريك نيتشه التي تعبر عن فترات حياته الفكرية المتخاصمة، بحثا عن منزلة هذا المفهوم الفلسفي في تبلور معنى جديد للذات التي تتغياها جنيالوجيا فريدريك نيتشه. **فإلى أي مدى يمكن لمفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" المساهمة، الفعلية، في الولادة الجديدة للذات؟**

سنحاول التفكير في هذا الإشكال متوسلين بمنهج ثلاثي الأبعاد: **تحليلي، مقارن ونقدي،** ومسترشدين بالموجهات الاستفهامية الآتية:

أولا: **ما مسارات تشكل مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" في المعجم النيتشوي؟**

ثانيا: أية علاقة تربط مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" بسؤال الوجود في فلسفة نيتشه؟

ثالثا، ما منزلة مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" في بلورة معنى جديد للذات؟

1. عن "العود الأبدي للذات ذاتها": مسارات تشكل المفهوم

ذكر مارتن هايدجر في نصه الموسوم ب"**من هو زرادشت نيتشه؟**" أن "العود الأبدي للذات ذاتها L'éternel retour même du"[1]، من جهة كونه مفهوما أساسيا، يحرضنا على التفكير دون أن يقودنا إلى جواب بعينه؛ إنه "يعبر عن لغز ورؤية: لغز لأنه يأخذنا إلى أرض التفكير بحثا عن حل دون أن ندركه، ورؤية لأنه يتقدم أمامنا دون أن يترك لنا فرصة الإمساك به."[2]

وفي السياق ذاته، سجل باتريك وتلينك في كتابه "**معجم نيتشه**" أن فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" تعد الفكرة الأكثر صعوبة في جنيالوجيا فريدريك نيتشه؛ ومرد صعوبتها كامن في تعدد طرق عرضها: في نصوص "ما بعد الوفاة"، قدم نيتشه فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" على شكل استدلال علمي؛ ومسعاه "بلورة تصور كوسمولوجي جديد يتجاوز فرضية الحالة النهائية للكون؛ متوسلا بحجة لا نهائية الزمن ومحدودية كمية القوة، بحيث يتعين على جميع حالات الواقع المتعددة أن تكرر ذاتها باستمرار."[3]

بيد أن الشذرة رقم 341 من مؤلف "**العلم المرح**" تكشف لنا عن مظهر آخر لفكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"، بحيث قدمها فريدريك نيتشه باعتبارها "تجربة ذاتية تخص ذاتا بعينها، ارتبطت بتجربة الإلهام التي عاشها نيتشه بشكل فجائي ولاإرادي."[4] **فكيف عاش فريدريك نيتشه واقعة العود الأبدي للذات ذاتها؟ وما علاقتها بتجربة الإلهام التي عاشها نيتشه بشكل فريد؟**

نسجل أن مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" ارتبط، عادة، ب"الإلهام الصوفي" أو"الوحي الديني" أكثر من ارتباطه بالحدس الفلسفي المفهومي؛ إذ اعتبر فريدريك نيتشه أن تجربة الإلهام التي عاشها كذات متفردة، تبقى تجربة أصيلة وخاصة دون أن ينكر إمكانية تكرارها مرات ومرات. يقول فريدريك نيتشه، على لسان زرادشت: "تبقى تجربتي حول الإلهام خاصة بي، وليس لدي أدنى شك أنه إذا عدت آلاف السنين إلى الوراء، سأعثر على شخص آخر يقول لي: "إنها، أيضا، تجربتي أنا."[5]

افتتح فريدريك نيتشه، في مؤلفه الموسوم ب:"**هذا هو الإنسان**"، الشذرة الأولى من الفصل المخصص لكتاب "**هكذا تكلم زرادشت**" بإطلاعنا عن تجربته في الإلهام، باعتبارها تجربة تعبر عن تصور جديد للعالم؛ تلك التجربة شبه الصوفية التي عاشها نيتشه بجانب صخرة ضخمة سامقة هرمية ما بين بحيرة سيلفابلاتا وسورلي في وادي الأنجادين شهر غشت سنة 1881، حيث ألهم بفكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" التي اعتبرها فريدريك نيتشه خلاصة التصور الرئيسي في مؤلفه "**هكذا تكلم زرادشت**"، بل "إنها أعظم صيغة للتأكيد يمكن للذات أن تنالها"[6] بلغة فريدريك نيتشه. **فهل، فعلا، نيتشه هو صاحب فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"؟**

ذكر فؤاد زكريا في كتابه عن نيتشه أن لفكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" تاريخا طويلا في الفلسفة، وما قبلها؛ إذ "ترجع أصول فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" إلى عهد الأديان القديمة التي قالت بها على أساس أسطوري لا يمتّ إلى العلم أو المنطق العقلي بصلة"،[7] كما أبرز بولس سلامة في كتابه المعنون ب:"**الصراع في الوجود**" أن "الأصل في "العود الأبدي للذات ذاتها" فكرة هندية بوذية؛ والهنود يعتبرون الوجود شرا، لذلك تراهم يصرفون كل همهم للتخلص من التناسخ والعود الدائم للحياة.هكذا، نجدهم يتقشفون كثيرا، ويعملون الصالحات ليموتوا إلى غير رجعة."[8]

نشير، أيضا، إلى أن فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" احتلت مكانة هامة في الفسفة اليونانية القديمة؛ فظهرت بوادرها في فلسفة أنكسمندرس حين قال بعدد لا متناه من العوالم، واعتقد في ما أسماه بالفناء الكوني، كما عرف نوعا من التعاقب بين أحوال مختلفة للعالم يقرب مما تقول به فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"؛ وازدادت الفكرة وضوحا مع هيرقليطس الذي ذهب إلى أن هذا العالم كان منذ الأزل، وهو كائن وسوف يكون إلى الأبد نارا، وهو يهتم بوصف عودة الأشياء إلى النار أكثر من اهتمامه بانفصالها عنه؛ وقد "اقترنت بهذه الفكرة مسألة تجدد العالم على فترات كبيرة من الزمان، وكذلك قال أنبادوقليس بتتابع أبدي لعوالم متتالية تكون ثم تفسد"،[9] وهي "فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"، والسنة الكبرى التي شاعت عند الرواقيين."[10]

يتحصل، إذن، أن فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" كانت شائعة قبل فريدريك نيتشه بعقود خلت. لكن، **لِم ادعى نيتشه، وهو المطلع الفذّ على التراث الإغريقي القديم، في مؤلفه "هذا هو الإنسان" أنه أول من نادى بفكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"؟ ألا نجد لهذا القول تناقضا لدى فريدريك نيتشه عندما صرح، في الجزء الثاني من مؤلف "اعتبارات ضد الراهن"، بأن الفيتاغوريين قالوا بفكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"؟ فكيف نفهم هذا وذاك إذن؟**

قد تقود القراءة المتسرعة لأقوال فريدريك نيتشه حول فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" بعضهم[11] إلى اتهام الرجل بالتناقض والخرف وما شاكل ذلك. بيد أننا لا نجد تناقضا في تصور فريدريك نيتشه للعود الأبدي للذات ذاتها؛ إذ يبدو لنا بأن تصريحه في الجزء الثاني من "**اعتبارات ضد الراهن**" لا يتناقض وادعاؤه في مؤلف "**هذا هو الإنسان**"، لأن منطلق التصريح قائم على الاستعمال الميتافيزيقي لفكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"، بينما يتأسس ادعاؤه على المعنى العلمي الجديد للعود الأبدي للذات ذاتها الذي شكل قطب الرحى في فلسفة زرادشت نيتشه.

نقول، إذن، إن فريدريك نيتشه صاحب القول السبق لفكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" ليس من جهة الانبثاق الأول للفظ، وإنما من حيث عمق دلالة الفكرة فلسفيا وعلميا بغية إخراجها من الفهم الميتافيزيقي والديني الذي شاع مع القدامة اليونانية. **فما المسوغات العلمية التي اعتمدها نيتشه لنزع الطابع الأسطوري عن مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها"؟ وكيف برر لذلك فلسفيا؟**

وضح فؤاد زكريا في كتابه الموسوم ب:"**نيتشه**" أن "صاحب "العود الأبدي للذات ذاتها" اتجه إلى دراسة العلوم الطبيعية ليثبت فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" إثباتا علميا"[12] رصينا، غير أن اعتلال صحته حال دون تحقيق مبتغاه. ومع ذلك، وقف فريدريك نيتشه عند بعض الدعامات العلمية لفكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"، وفي مقدمتها القول بأن مدى القوة الكونية متناه ومحدود، لأن فكرة استمرار التحول إلى ما لانهاية تحمل في ذاتها تناقضا، إذ تفترض وجود قوة تتزايد إلى ما لانهاية. لذلك، "انتهى نيتشه إلى القول بأن تصور العالم، من جهة كونه قوة محدودة، هو الذي يميز الروح العلمية عن الروح الدينية."[13] تنضاف إلى دعامة محدودية القوة، في نظرنا، دعامة علمية أخرى تتمثل في لانهائية الزمن؛ أي أن تظل القوة المتناهية ملزمة زمانيا بممارسة فعلها بلا انقطاع. لكن، **من أين لها هذا التزايد في طلب القوة؟ ومن أين تتغذى بهذا القدر الهائل من القوة؟**

حيث إن لا نهائية الزمن تقودنا إلى حالة تستنفد فيها الإمكانيات المتاحة لهذه القوة المتناهية، فإنه "تأتي حالة تماثل، تماما، حالة أخرى تكررت من قبل، وعندئذ تتلو عنها كل الحوادث كما وقعت من قبل تماما، ويكون الكون قد أتم دورة من دوراته، وتظل هذه الدورات تتكرر إلى الأبد؛ وكل دورة منها تظل مماثلة للأخرى في كل صغيرة وكبيرة"،[14] مادام الزمن لا يكف عن لا نهائيته اللانهائية، ومادامت القوة المدفوعة بفعل تدفق الزمن إلى الفعل اللامنقطع تعاني من محدوديتها ونهائيتها.

إذا كان التسويغ العلمي الذي اعتمده فريدريك نيتشه في المحاججة على فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" يقوم أساسا على حل مشكلة الصراع بين نهائية القوة، والضغط المتصل للزمن اللانهائي، فإن التبرير الفلسفي الذي اعتمده صاحب الجنيالوجيا، حسب فهمنا، ينطلق من الوشيجة التي أقامها بين التأويلين المتنازعين للوجود: التأويل الهيراقليطسي القائل بالتحول الدائم، والتأويل البارمنيدسي المنافح عن الوجود الثابت. **فكيف استطاعت الجنيالوجيا، من خلال مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها"، ردم الهوة التي أقامتها الميتافيزيقا بين ثنائية الصيرورة المتدفقة والوجود الثابت؟**

2. في العلاقة بين مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" وسؤال الوجود:

غني عن البيان أن هيراقليطس بلور تصورا مرعبا ومهولا للعالم الأرضي بوصفه عالم التدافع والصيرورة، وموطن الهشاشة والسيلان، حيث "أضحى الكائن صيرورة؛ والصيرورة كائنا؛ ولا تناقض في العبارتين".[15] بيد أن "مدار فلسفة برمنيدس يتمثل في استشكال عالم الصيرورة؛ نازعا عنه صفة الوجود الحق؛ زاجا به في غياهب الوهم والكذب"؛[16] ومقرا بوجود "عالم حق" وراء عالم الفساد والتبدل.

أمام هاتين الرؤيتين الفلسفيتين المتخاصمتين حول الوجود، انبثق المنظور الجنيالوجي عند فريدريك نيتشه الذي أعاد النظر في ثنائية التغير والثبات، بحيث أكسب نيتشه التحول صفة الوجود؛ فلم يعد التحول الدائم متحقق الوجود دون أن تكون له أية هوية مع ذاته، بل "أضحى التحول ذاته يعود دوما إلى ذاته؛ فلكل مرحلة من مراحل التغير الدائم ثبات أبدي"[17] يمنحها وجودا.

هكذا، يبدو لنا أن جنيالوجيا فريدريك نيتشه استطاعت، من خلال مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها"، ردم الهوة بين التأويلين المتخاصمين للعالم؛ داعية إلى تأويل يجمع بين الحاجة إلى المتناهي والمتحدد عينيا، والحاجة إلى اللامتناهي وإلى العلو، لأن الفكرة، حسب فريدريك نيتشه، تتضمن محتوى متناهيا وظواهر محددة في صورها وأشكالها انطلاقا من الواقع العيني الذي نعيشه، ثم تكسبها صفة التكرار الأبدي إلى ما لا نهاية؛ فتمنحها نوعا من الخلود والأبدية، وتعلو بها على مجال الفناء.

في هذا المقام، يفهم مارتن هايدجر أن التوليفة التي أقامهافريدريك نيتشه بين الصيرورة والوجود عبارة عن ردّ الدوام إلى الصيرورة؛ أي "تمثل الماضي على أنه صيرورة دائمة ضمن "العود الأبدي للذات ذاتها"؛ لترتسم صورة زرادشت مؤكدة الدوام الدائم للصيرورة."[18] لكن، **عن أية صيرورة نتحدث هنا؟**

أدرك ماتيو كيسلر، في كتابه المعنون ب:"**نيتشه أو التجاوز الإستطيقي للميتافيزيقا**"، أن "الأمر يتعلق بالصيرورة الفردية، الجزئية والتاريخية، على مستوى عصر أو حقبة، لا الصيرورة الكلية والفوق تاريخية، لأن التغيير والإبداع ممكنان على مستوى الصيرورة الفردية والتاريخية فقط."[19]

يتعلق الأمر، إذن، بالصيرورة الدالة على التعدد اللامتناهي، لا الصيرورة من جهة كونها وحدة لامتناهية؛ وهذا ما أشار إليه موريس بلانشو عندما "أكد أن أصالة مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" تكمن في النقلة النوعية التي أحدثها داخل رؤيتنا للوجود: من الوحدة اللانهائية إلى التعدد اللانهائي."[20]

هكذا، ندرك أن النقلة النوعية التي أحدثها مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" ساهمت في انتشال الذات من منطق الوحدة والتطابق إلى منطق التعدد والاختلاف. أو لنقل بتعبير نيتشوي جد مكثف: "الذات تعدد."[21] لذلك، فقدت الذات ضامن وحدة هويتها ووجودها؛ لتجد نفسها معرضة للتفكيك والتشظي والتحول: "تحول سرمدي تصطبغ كل مراحله بصيغة أبدية."[22]

لوشئنا تلخيص فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها"، لقلنا مع لورانس جين كيتي شين: "إن هذه الحياة التي تحياها أنت، والتي عشتها من قبل، سوف تعيشها مرة ومرات، وفي أزمنة بغير عدد، ولن يكون فيها شيء جديد. بل، إن كل ألم وكل فرح، وكل فكرة وكل تنهيدة، وكل صغيرة مما لا يمكن التفوه به، وجميع الأحداث العظيمة في حياتك لا بد أن تعود إليك من جديد؛ كل شيء بنفس التسلسل وبنفس النتائج."[23] لكن، **هل يستفاد من هذا القول بأن مسألة الحرية لا مكان لها في فلسفة "العود الأبدي للذات ذاتها"؟**

3. مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها"، ورهان بناء الذات الحرة:

يحاول جون ستامبوغ، في كتابه الموسوم ب:"**فكر نيتشه حول العود الأبدي للذات ذاتها**"، رفع الغبش المحدق بمفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" من جهة ارتباطه بمسألة "الضرورة والحرية"؛ "مؤكدا أن فريدريك نيتشه إذ يوظف هذا المفهوم الأساسي للتعبير عن القانون الطبيعي الذي تخضع له جميع الوقائع والأحداث بشكل حتمي، فإن مقصوده الجنيالوجي يتمثل في توكيد الفعل الحر الخلاّق الذي تمنحه العودة الأبدية للذات ذاتها"[24] من جهة كونها عقلا حرا.

هكذا، يتبدى لنا واضحا أن فلسفة "العود الأبدي للذات ذاتها" أرست معنى جديدا للحرية خارج الإرث الفلسفي القديم: إن حتمية ما يقع، حسب ماتيو كيسلر، لا تلغي حرية ما يبدَع، بل إن الشأن في الأولى الإثبات للثانية متى فهمنا فكرة "حب القدر" في التيبولوجيا النيتشوية؛ ف"بقدر حبنا لما يقع، كما يقع، تنمّى إرادة الفعل الحر الخلاق لدى الذات المبدعة ليبصح فعلها الإبداعي ممكنا دوما."[25] بهذا المعنى، نفهم أنه مع "العود الأبدي للذات ذاتها" ينمحي كل تخاصم بين مفهومي "الحرية والضرورة."[26]

يحضر هذا المعنى، أيضا، لدى عبد الغفار مكاوي عندما "أكد أن "العود الأبدي للذات ذاتها" إذ يجعل العالم كله مسكن الإنسان، ويحرره من كل ضروب العبودية الداخلية والخارجية، فإنه يصر على هدم التفرقة التي أقامتها القدامة الفلسفية بين الحرية والضرورة، لأن ما تريده الإرادة عن حرية لا بد أن يأتي، ضرورة، في دورة العود الأبدي للذات ذاتها."[27]

لو شئنا التعبير عن التعالق الذي أقامه فريدريك نيتشه بين مفهومي "الحرية" و"الضرورة"، لقلنا: لما أعلن زرادشت حبه للقدر، اختيارا لا اضطرارا، فإنه أرسى معنى للحرية داخل الضرورة؛ فمثلما استوعب الماضي ملامح المستقبل، واكتسى المستقبل بملامح الماضي، كذلك تكمن الضرورة الآن في الحرية، كما تكمن الحرية في الضرورة. هكذا، يتبيَّن لنا، من خلال حديث زرادشت، "أن "فكرة العود الأبدي للذات ذاتها" لا تلغي الحرية، بل تحررها من القيد الذي رسفت فيه حتى الآن"،[28] والمتمثل أساسا في وهم الاعتقاد بأن حتمية ما مضى لن تفتح أي أفق لما هو آت. **فأين يمكن للمستقبل والماضي أن يلتقيا لقاء حبيب بمحبوبه؟**

نشير إلى أن زرادشت فريدريك نيتشه يجسد لحظة التعالق المرح بين ما مضى، وما هو آت من خلال تغنيه الماتع ب"العود الأبدي للذات ذاتها":[29] "آه يا نفسي! تمنيت عودة جميع الأشياء من جديد؛ وأن تعود كلها أبدية ومترابطة بمحبة سرمدية!"[30] ف"لا وجود للأشياء إلا في عودتها من حيث هي نسخ من بين نسخ لا متناهية على حد تعبير عبد السلام بن عبد العالي."[31]

تأسيسا على ما سبق، يسجل جون غرانيي، في كتابه حول فريدريك نيتشه، أن مفهوم ""العود الأبدي للذات ذاتها" يحول إرادة الارتكاس إلى إرادة خالقة تعبيرا عن الحياة المتصاعدة، لأنها وحدها من تجبر الإرادة على التسامي فوق الحاجز المرعب الذي تعارض به مقاومة الماضي كل مبادرة حرة."[32]

لنقل إذن: إن ربط ما مضى من الماضي بالمستقبل الآتي يرقى بالذات الخلاقة إلى مصاف إبداع ما لم يتم إبداعه بعد؛ فتنفرج طرق الخلق أمام ذات تتدفق إبداعا، لتتوثق الصلة بينها وبين العالم المغري بالخلق والإبداع في رحلة عود أبدي لا يكف عن العودة باستمرار.

بهذا الاعتبار، يعلمنا "العود الأبدي للذات ذاتها"، من جهة كونه "عودة إثباتية لا عودة إنكارية، أن الوجود انتقاء"؛[33] ف"العودة التي يثبتها زرادشت هي عودة الصيرورة الفاعلة"،[34] التي تتغيا إعادة وصل "الإنسان الأسمى" بالحياة، لأن تاريخ الفكر منذ سقراط تاريخ "نفي الحياة"، وإنكارها إما بمبادئ عقلية مطلقة أو بقيم أخلاقية ارتكاسية أو بتعاليم لاهوتية متعالية.

الحاصل: يبدو لنا أن زرادشت فريدريك نيتشه تعهّد بتعليم الكلمتين "العود الأبدي للذات ذاتها"، و"الإنسان الأسمى" في الوقت ذاته، لأن من ستناط بعهدته فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" وحده "الإنسان الأسمى" القادر على فهم دلالتها، واستيعاب أبعادها.

خاتمة:

نصل في خاتمة هذا المقال إلى المحصلة الآتية: قادتنا محاولة التفكير الجنيالوجي في مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها"، كما تبلور في المعجم النيتشوي من جهة، ومنزلته في الولادة الجديدة للذات من جهة أخرى، إلى استخلاص النتائج الآتية:

أولا: احتلت فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" مكانة هامة في الفسفة الإغريقية القديمة، لكن يظل فريدريك نيتشه صاحب القول السبق لهذه الفكرة ليس من جهة الانبثاق الأول للفظ، وإنما من حيث عمق دلالة الفكرة فلسفيا وعلميا بغية إخراجها من الفهم الميتافيزيقي الضيق، والتفسير الديني الارتكاسي الذي شاع مع القدامة اليونانية.

ثانيا: بلور فريدريك نيتشه مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها" انطلاقا من مدخلين: أولا، التسويغ العلمي القائم أساسا على حل مشكلة الصراع بين نهائية القوة، والضغط المتصل للزمن اللانهائي. ثانيا، التبرير الفلسفي المنطلق من الوشيجة التي أقامها نيتشه بين التأويلين المتنازعين للوجود: التأويل الهيراقليطسي القائل بالتحول الدائم، والتأويل البارمنيدسي المنافح عن الوجود الثابت.

ثالثا: استطاع نيتشه، من خلال مفهوم "العود الأبدي للذات ذاتها"، ردم الهوة بين التأويلين المتخاصمين للوجود؛ مدشنا لتأويل يجمع بين الحاجة إلى المتناهي والمتحدد عينيا، والحاجة إلى اللامتناهي وإلى العلو، لأن الفكرة، حسب نيتشه، تتضمن محتوى متناهيا وظواهر محددة في صورها وأشكالها انطلاقا من الواقع العيني الذي نعيشه، ثم تكسبها صفة التكرار الأبدي إلى ما لا نهاية.

رابعا، فتحت فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" أفقا جديدا أمام الذات المعاصرة خال من المطلق الذي ألفه الإنسان عبر التاريخ، ووضعت الذات أمام ذاتها حرة دون قيود متكلسة تعوق انطلاقتها الديناميكية؛ طالما لم تلغ فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" الحرية، بل حررتها من القيد الذي رسفت فيه حتى الآن. آنذاك، يمكن للذات المرحة أن تحلق نحو اللانهائي الذي تكتشفه داخل تجربتها الأصيلة.

الهوامش:

[1] استوقفتنا العديد من الترجمات لمفهوم "Éternel Retour du même" في فلسفة فريدريك نيتشه؛ فهناك من يترجمها ب"العود الأبدي" (عبد السلام بن عبد العالي في كتابه "**أسس الفكر الفلسفي المعاصر**")؛ وهناك من يترجمها ب"العود الأبدي للهو هو" (فوزية ضيف الله في كتابها "**كلمات نيتشه الأساسية**")؛ وهناك من يترجمها ب"العودة الدائمة" (أسامة الحاج في ترجمته لكتاب دولوز "**نيتشه والفلسفة**")؛ وهناك من يترجمها ب"العود الأبدي للشبيه" (صفاء عبد السلام

علي جعفر في كتابها "**محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه**")؛ وهناك من يترجمها ب"العود الأبدي للذاته" (محمد مزيان في كتابه "**مسألة الذات في الفلسفة الحديثة**"، وفي ترجمته لكتاب هايدجر "**الفلسفة، الهوية والذات**").

بيد أننا ارتأينا ترجمتها ب: "**العود الأبدي للذات ذاتها**"؛ وعيا منا أن ترجمتنا تجعل من العودة التكرارية للزمن واقعة على الذات ذاتها من جهة كونها ذاتا متعددة ومتجددة بشكل مستمر، لا ذاتا متطابقة مع ذاتها. لذلك، نجد أن هذه العودة التكرارية للزمن مسكونة بالاختلاف والتعدد والتحول والإبداع، لا عودة تكرارية نمطية ثابتة تشلّ كل معاني الخلق والإبداع الذاتيين.

[2] Heidegger, Martin, **Qui est le Zarathoustra de Nietzsche ?** Essais et Conférences, Gallimard, Paris, 1958, P 139.

[3] Wotling, Patrick, **Le vocabulaire de Nietzsche**, Ellipses, Paris, 2013, PP 27-28.

[4] Nietzsche, Friedrich, **Ecce Homo**, Traduit de l'allemand par Jean-Claude Hémery, traduction revue, préfacée et annotée par Dorian Astor, Gallimard, Paris, 2012, P 36.

[5] Ibid., P 37.

[6] Nietzsche, Friedrich, **Ecce Homo**, op., cit., P 35.

[7] زكريا، فؤاد، **نيتشه**، الطبعة الثانية، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966، ص 138.

[8] بولس، سلامة، **الصراع في الوجود**، دار المعارف، مصر، 1945، ص 209.

[9] زكريا، فؤاد، **نيتشه**، مرجع سابق، ص 138.

[10] عبد السلام علي جعفر، صفاء، **محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه**، دار المعرفة الجامعية للنشر، الإسكندرية، مصر، 1999، ص 384.

[11] عنينا بعض القراءات العربية لفلسفة نيتشه عموما، ولكلمته حول "العود الأبدي للذات ذاتها" تحديدا؛ ومن بين هذه القراءات نجد: محمد مزوغي من خلال كتابه "**التخلص من نيتشه**"، بولس سلامة في كتابه "**الصراع في الوجود**" وفؤاد زكريا من خلال كتابه "**نيتشه**".

[12] ذكرت سالومي بأن فريدريك نيتشه عد الإلهام اللحظة الخالدة التي يمكن البرهنة عليها علميا.

عبد السلام علي جعفر، صفاء، **محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه**،مرجع سابق، ص 380.

[13] زكريا، فؤاد، **نيتشه**، مرجع سابق، ص 141.

[14] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[15] Heidegger, Martin, **Nietzsche I**, traduit par pierre Klossowski, Éditions Gallimard, Paris, 1971, P 28.

[16] Nietzsche, Friedrich, **Le livre du philosophe**, Traduction Cremer-Marietti-Aubier, Flammarion, Paris, 1969, Para 195, P 229.

[17] زكريا، فؤاد، **نيتشه**، مرجع سابق، ص 142.

[18] عبد السلام علي جعفر، صفاء، **محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه**، مرجع سابق، ص ص 283/282.

[19] Kessseler, Mathieu, **Nietzsche ou le dépassement esthétique de la métaphysique**, Presses universitaires de France, Puf, Paris, 1999, P73.

[20] Blanchot, Maurice, **Le rire des Dieux**, in N.R.F, France, Juillet 1965.

[21] Nietzsche, Friedrich, **La volonté de puissance, tome1**, texte établi par Friedrich Würzbach, Traduit de l'allemand par Geneviève Bianquis, Gallimard, Paris, 1995, P 254.

[22] كيال، ياسمينة، **أصل الإنسان وسر الوجود**، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1971، ص 119.

[23] جين كيتي شين، لورانس، **نيتشه**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 2002، ص 48.

[24] Stambaugh, Jean, **Nietzsche's Thought of Eternal Return**, University Press, London, 1972, P 5.

[25] Kessseler, Mathieu, **Nietzsche ou le dépassement esthétique de la métaphysique**, op., cit., P74.

[26] تبدو لنا، في سياق ربط الحرية بالضرورة، ملامح الإسبينوزية حاضرة متوهّجة وضّاءة في فلسفةفريدريك نيتشه؛ إذ في الوقت الذي ربط فيه اسبينوزا الحرية بالوعي بالضرورة، نجد نيتشه أيضا يبني معنى للحرية من داخل عالم الضرورة. لكن، رغم التقارب الكبير بين أطروحتي اسبينوزا ونيتشه حول علاقة الحرية بالضرورة، فإن ثمة تباينا واضحا بين منطلقاتهما الفلسفية؛ ففي الوقت الذي يدشن فيه اسبينوزا معنى للحرية من داخل قلعة الوعي، فإن نيتشه يبني معنى جديدا

للحرية من عمق الدوافع الغريزية الحيوية. صحيح أن نيتشه يصرخ بملء فمه أن دماء اسبينوزا تجري في عروقه، إلا أن ثقافة صاحب "**الإيتيقا**" خلف المعرفة البرهانية كشرط للحرية الحقيقية، والجهل النظري للأسباب الثاوية وراء الفعل الإنساني توقعنا في وهم الحرية، جعل صاحب فكرة "العود الأبدي للذات ذاتها" يرسم معنى إستطيقيا للحرية؛ إذ يصبح بمقتضاه الفعل الإبداعي حرا طالما تنامى فينا حب القدر؛ فتتسامى فينا إرادة الإقبال الحر على الحياة رغم طابعها التراجيدي الفظيع.

[27] مكاوي، عبد الغفار، **مدرسة الحكمة، مقال العود الأبدي**، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2018، ص 196.

[28] المرجع نفسه، ص 195.

[29] قدم مارتن هايدجر، خلال الفصل الدراسي الشتوي 1952/1951، وردا على السؤال المطروح: **من هو زرادشت؟** الجواب الآتي: "تتمثل مهمة زرادشت في تعليمنا العود الأبدي للذات ذاتها."

Crépon, Marc, **Cahier Nietzsche, L'Herne Nietzsche**, Édition L'Herne, Paris, 2000, P 39

[30] Nietzsche, Friedrich, **Ainsi Parlait Zarathoustra**, traduction, préface et commentaires de Georges–Arthur Goldschmidt, Librairie Générale Française, Paris, 1983, P 621.

[31] بن عبد العالي، عبد السلام، **أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاوزة الميتافيزيقا**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1991، ص 104.

[32] غرانيه، جون، **نيتشه**، ترجمة علي بوملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2008، ص 127.

[33] Deleuze, Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, PUF, Paris, 1970, P297.

[34] Ibid., P293.